مجلّة انتحـــــاء

Intihaa Journal
Available online at: intihaa@ens-ouargla.dz
ISSN : المجلد (الرقم1) العدد(الرقم1)(السنة2024) : رقم صفحة البداية49 – رقم نهاية الصفحة60

الاستقلال اللغوي: جذوروامتدادات

Linguistic independence: roots and extensions

د. زكية عرعار
المدرسة العليا للأساتذة ورقلة
البريد الإلكتروني المهني: arar.zakia@ens-ouargla.dz

تاريخ الاستلام:2023/12/13 تاريخ القبول: 2023/12/30 تاريخ النشر: مارس 2024

الملخص:

من المتفق عليه أنه لا يمكن بأي شكل من الأشكال فهم طبيعة الخطابات الفكرية المعاصرة إلا من خلال ربطها بسياقاتها، وعليه تسعى هذه الورقة البحثية إلى البحث في الجذور الفكرية والمرجعيات الأيديولوجية لقضية الاستقلال اللغوي عند المستعمِر والمستعمَر على حد سواء.

الكلمات المفتاحية: الاستقلال اللغوي، الخطاب الكولونيالي، الاستشراق، الدين، الإمبريالية.

Abstract

It is widely agreed that understanding the nature of contemporary intellectual discourses can only be achieved by connecting them to their contexts. Therefore, this research paper aims to explore the intellectual roots and ideological references of the linguistic independence issue both for the colonizer and even colonized.

Key words: Linguistic independence- Postcolonial discourse- Orientalism- The religion- imperialism.

مقدمة

تندرج الخطابات النقدية والفكرية والثقافية سواء الحديثة أو المعاصرة تحت إطار الخطاب ما بعد الكولونيالي، باعتبار أنّ هذا الأخير يشمل كل كتابة منذ دخول الاستعمار إلى يومنا هذا، وعلى هذا الأساس يمكن التمييز بين نوعين من الخطاب، خطاب كولونيالي إمبريالي غربي، وخطاب ما بعد كولونيالي مقاوم.

ولعلّ الإطار الفكري لقضية الاستقلال اللغوي يحدده خطاب كولونيالي مقاوم يسعى إلى التحرّر من تبعات وآثار الاستعمار على اللغة بعدّها من مقوّمات الهوية ومن أسس المشروع الحضاري. وعليه فإنّ هذه الورقة البحثية تنبني على إشكالية جد هامة مفادها: هل يقتصر مفهوم الاستقلال اللغوي على استبعاد لغة الآخر وجعلها أداة لتكريس الهيمنة الغربية؟ وهذا مايحيل إليه المفهوم في بعده اللغوي- إذا علمنا أن الخطاب الذي قوّض المركزية الغربية كان بلغة المستعمِر وفكر المستعمَر. مايعني أن الواقع الحضاري المعولم اليوم يفرض بعدا آخر لمفهوم الاستقلال اللغوي. وهو ما تستأثر بتوضيحه هذه الورقة البحثية، من خلال التطرق إلى القضايا التالية:

أولا: مكانة اللغة في الخطاب النقدي المعاصر

ثانيا: جينالوجيا الاستقلال اللغوي

ثالثا: اللغة في السياق المعولم

أولا : مكانة اللغة في الخطاب النقدي المعاصر

تطلعنا قراءة عابرة للعديد من الدراسات التي تطرح قضية الاستقلال اللغوي على عدة مفاهيم لا تكاد تتجاوز المعنى اللغوي القائم على التحرّر والاستغناء الذي يعتبر اللغة وسيلة من وسائل ضمان استمرارية الهيمنة الغربية في مرحلة ما بعد الاستعمار، وأصبحت بذلك الكلمات هي العدو على حد تعبير العديد من المفكرين والنقاد.

إلا أن المتمعن في طبيعة الحركة النقدية والفكرية العالمية في عصر العولمة سرعان ما يدرك أن الاستقلال اللغوي بهذا المفهوم يدخل الذات في عزلة كفيلة بتحقيق المساعي والغايات الإمبريالية التي عجز الاستعمار المباشر عن تحقيقها، وهو يستند إلى رؤية يحكمها

مبدأ الجوهرانية الذي سبق وأن حذر منه العديد من المفكرين من أمثال إدوارد سعيد وفرانس فانون وغيرهم.

وعليه فإن الرؤية الفكرية التي تحكم هذا التصور ما هي إلا انعكاس لطبيعة العلاقة الاستشراقية القائمة بين الذات والآخر، وهي علاقة سبق وأن حددها الراحل عفيف فراج في كتابه "ثنائيه شرق غرب" بقوله: "منذ اليونان حتى اللاتين وصولا إلى يومنا هذا يستمر الغرب في تحقير الآخر وتأليه الذات"

ولقد أدى الخوض في قضية اللغة بعدّها من مقومات الاستقلال إلى جدل عقيم بين مؤيد ومعارض، بين من يرى لغة الآخر وسيلة من وسائل التبعية، وبين من يراها وسيلة للّحاق بركب الحضارة والتطوّر والرقي.

1/ اللغة والإمبريالية:

أدرك العديد من المفكرين والنقاد طبيعة الإمبريالية الغربية القائمة على الهيمنة غير المباشرة، التي استعملت فيها كافة الوسائل عدا السلاح، وفي هذا السياق تم الكشف عن البعد الإمبريالي للغة، ويعد الكاتب الكيني **نغوجي و اثيونغو** من أبرز من تناول هذا الطرح بالدراسة والتحليل، فاللغة عنده وسيلة من وسائل التبعية الفكرية للمستعمر، عبر عن ذلك في كتاب رائع يحمل عنوان **تصفية استعمار العقل** جاء هذا الكتاب ليودع من خلاله الكتابة بلغة المستعمِر، وهي كما يشير عنوان الكتاب << أداة الإخضاع العقلي والروحي التي تأتي في مقابل الرصاصة التي هي أداة الإخضاع الجسدي، وهي بذلك أخطر وسيلة من وسائل فرض الاستعمار في صورته الجديدة، وهو ما يسميه بالوضع **النيوكولونيالي** الذي تحاول من خلاله أوروبا شلّ حركة الثقافة والعقل الإفريقيين، وفي المقابل الإرتقاء بالعقل الأوروبي، باعتبار أن الغرب يبني هويته على إقامة ثنائيات متضادة ترمي إلى تمجيد الذات وتدنيس الآخر >> (زكية عرعار، 2021، ص: 130).

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن المشروع الفكري لواثيونغو انبنى على رؤية مقاومة للمد الجامح للفكر الغربي، مؤكدا في هذا السياق على أن المستعمِر الحقيقي هو الغرب (المستعمِر، الاستعمار، الإعمار، التعمير) باعتبار أن أوروبا نهبت خيرات وثروات العالم الثالث، وهي اليوم(في سياق حديث واثيونغو) << تسرق كنوز العقل الإفريقي لتغني لغاتها وثقافاتها >> (نغوجي واثيونغو، 2011، ص: 12).

ولقد أدرك الأثر النفسي الذي يترتب عن الإمبريالية اللغوية، ويتمثل في ما سّماه **بالقنبلة الثقافية** التي ترمي إلى << إبادة إيمان شعب بأسمائه ولغاته وبيئته وإرثه النضالي وقدراته وفي النهاية، إبادة إيمان شعب بنفسه، إنها تجعل الناس ينظرون إلى تاريخهم باعتباره يبابا لا منجز فيه، وتجعلهم يريدون أن يتماهوا مع الأبعد عنهم، مثلا مع لغات شعوب أخرى لا مع لغتهم هم >> (نغوجي واثيونغو، 2011، ص: 18) وهذا هو مكمن الخطر والأثر البعيد المدى للقضية.

2/ اللغة والمقاومة:

قراءة عابرة لمضامين الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي كفيلة بأن توقعنا في مفارقة بين المعاني المتضمنة في هذا الخطاب من جهة، وطرائق التعبير عنها من جهة ثانية، باعتبار أن لغة الآخر هي الوسيلة التي عبر بها كل من إدوارد سعيد وهومي بابا وجاياتري سبيفاك وغيرهم كثر... عن مضامين خطاباتهم، وعليه فإن السؤال الذي يطرح في هذا السياق - طبعا إذا علمنا أن لغة الآخر << وظيفتها في وضع مفاهيم الفكر هي قمع الآخر وجعله تحت رعاية الذات >> (روبرت يونغ، 2003، ص: 73) - فما الذي تمثله اللغة بالنسبة لهؤلاء المفكرين والنقاد؟ تقودنا الإجابة عن هذا الإشكال إلى الخوض في قضية أعمق وهي تفكيك الإمبراطوريات الغربية من داخلها، وهو ما سمّاه إدوارد سعيد **بالرحلة إلى الداخل** التي تقوم على تفكيك المركزية عن طريق استخدام أدواتها وفكرها وثقافتها، وهذا ما جعل من لغة الآخر << لغة حبلى بتجارب ثقافية ومواقف ايديولوجية عالمثالثية محطمة القيود وفاضحة للسياسات الغربية الساعية لفرض الهيمنة، وهذا ما يسمى في الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي بمفهوم **الإقصاء** الذي يمثل بالنسبة لأنصار هذا الخطاب رفضا لمقولات ثقافة الإمبراطورية وجمالياتها ومقياسها التضليلي حول الاستخدام المعياري أو الصحيح وافتراضها معنى تقليديا وثابتا محفورا في الكلمات إنها لحظة حيوية من لحظات تخليص اللغة والكتابة الإنجليزية من الكولونيالية >> (زكية عرعار، 2021، ص: 133).

فعن طريق لغة المستعمِر أعاد إدوارد سعيد وغيره من المنظرين بناء صورة للذات والآخر تتنافى والتصورات الاستشراقية، وعليه فإن الخطاب مابعد الكولونيالي << يتمسك

بلغة المركز ويعيد تعيين موضعها في خطاب جرى تكييفه بالكامل لملاءمة المكان المستعمَر >> (بيل أشكروفت وآخرون، 2010، ص: 73)،

ثانيا: جينالوجيا الاستقلال اللغوي:

إن معالجة اللغة بهذا المنطق الجدلي يدخل ـ كما سبق وأن أشرنا ـ الذات في عزلة كفيلة بتحقيق المآرب الإمبريالية، ويتطلب تجاوز هذا الوضع إعادة النظر في المرجعيات والمنطلقات الفكرية التي حددت مفهوم الاستقلال، وقبل ذلك استراتيجية الهيمنة وأسس الاستشراق الذي مهد للاستعمار ومكانة اللغة في كل هذا.

1/ لغة الاستشراق:

بما أن طبيعة الفكر الاستشراقي يحكمها منطق الخوف من الإسلام فإن لغة الاستشراق هي لغة الحبلى بالعديد من التصورات التي كانت بمثابة المنطلق الإيديولوجي لعلاقة الذات مع الآخر، وهي بذلك **"لغة الوجود"** نظرا لمكانة الفكر الاستشراقي ودوره في إعادة بناء الخارطة الفكرية للعالم.

ولعل الناظر في مصطلح "**لغة الوجود**" يدرك تمام الإدراك بأن مفهوم اللغة هنا لا يقتصر على الجانب الشكلي بقدر ما يتجاوزه إلى البعد الفكري الذي يعكس مستوى وعي وإدراك حقيقة الوجود. والحقيقة هنا بالمعنى النيتشوي للحقيقة، هذه التي تتجسد أساسا في اللغة، وحقيقة اللغة ما هي إلاّ <<جيش متحرك من الاستعارات والكنايات والتشبيهات بالإنسان، وباختصار مجمل علاقات بشرية قامت عوامل شعرية وبلاغية بالارتقاء بها وتبديل مواقع أجزائها وتجميلها، فأصبحت تبدو بعد طول استعمالها (حقائق) صلبة وفقهية وملزمة لشعب من الشعوب، ما الحقائق إلا أوهام نسي المرء أنّها كذلك في الواقع>> (إدوارد سعيد، 2006، ص: 43-44). وعليه فإن الإشكالية الأساسية تتجاوز كونها إشكالية لغة بقدر ما هي إشكالية وعي بحقيقة وجود الاستشراق، هذا الذي كان بمثابة المرحلة التمهيدية للاستعمار، الذي أجّج بدوره روح المقاومة التي لم تكتف بالاستقلال السياسي بقدر ما اعتبرت الاقتصار عليه استمرارا للاستعمار، وفي هذا

السياق يعتبر الوعي بالمهمة المنوطة بالمقاومة الثقافية كفيل بتحقيق مهمة حضارية بامتياز.

وعلى هذا الأساس تعد قضية اللغة تحصيلا حاصلا لمستوى الوعي بجينالوجيا الصراع، باعتبار أن اللغة في نهاية المطاف هي << صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجودا متميزا قائما بخصائصه فهي قومية الفكر وأساليب أخذ المعنى من المادة >> (مصطفى صادق الرافعي، ت ط: 2000، ص: 26)، ومن المعلوم أن وجود الأمة كان وما زال محور الدراسات الاستشراقية التي ألغت وجودها ـ أي وجود الأمة ـ وربطت تاريخ المستعمرات بتاريخ استعمارها، ففرنسا مثلا اعتبرت أن تاريخ الجزائر يبدأ بدخول الاستعمار، وقبل 1830 كانت مجرد تجمعات بشرية بربرية. ما يعني أن سياسة الاستشراق أدركت تمام الإدراك مكانة الأمة ودورها في تحقيق الوجود، وليست حقيقة الأمة << في هذا الظاهر الذي يبدو من شعب مجتمع محكوم بقوانينه وأوضاعه، ولكن تلك الحقيقة هي **الكائن الروحي** المكتنّ في الشعب، الخالص له من طبيعته، المقصور عليه في تركيبه كعصير الشجرة، لا يُرى عمله والشجرة كلها هي عمله >> (مصطفى صادق الرافعي، ت ط: 2000، ص: 26)

هذا الكائن من شأنه أن يحقق << في الشعب قرابة الصفات بعضها من بعض، فيجعل للأمة شأن الأسرة، ويخلق في الوطن معنى الدار، ويوجد في الاختلاف نزعة التشابه، ويرد المتعدد إلى طبيعة الوحدة، ويبدع للأمة شخصيتها المتميزة، ويوجب لهذه الشخصية بإزاء غيرها قانون التناصر والحمية، إذ يجعل الخواطر مشتركة والدواعي مستوية والنوازع متآزرة، فتجمع الأمة كلها على الرأي، تساند له بقواها، ويشدّ بعضها بعضا فيه، وبهذا كله يكون روح الأمة قد وضع في كلمة الأمة معناها >> (مصطفى صادق الرافعي، ت ط: 2000، ص: 26)

وعليه فإن تراجع مكانة اللغة نابع من ضعف هذا الكائن الروحي للأمة، باعتبار أن << الخلق القوي الذي ينشئه للأمة كائنها الروحي، هو المبادئ المنتزعة من أثر الدين واللغة والعادات، وهو قانون نافذ يستمد قوته من نفسه، إذ يعمل في الحيز الباطني من وراء الشعور متسلطا على الفكر مصدقا لبواعث النفس، فهو وحده الذي يملأ الحي بنوع حياته، وهو طابع الزمن على الأمم، وكأنه على التحقيق وضع الأجداد علامتهم الخاصة على ذريتهم >> (مصطفى صادق الرافعي، ت ط: 2000، ص: 26).

وفي إطار الوظيفة المنوطة بهذا الكائن الروحي، والتي تتمثل في ملء الحي بنوع حياته يتضح بأن النسق المضمر للإمبريالية هو تحطيم هذا الكائن، الذي يمثل حقيقة وجود الأمة، وهذا ما تؤكده الدراسات النقدية المعاصرة "المتمثلة في النقد الذاتي" التي سلطت الضوء على تحليل طبيعة الفكر الذي يجسد مستوى الوعي بجينالوجيا الصراع.

ولعلّ مضامين هذه الدراسات تعكس نوع الحياة في ظل ضعف الكائن الروحي للأمة، فهو "**الاختراق الكولونيالي**" للفكر العربي عند "جوزيف مسعد" في كتابه "اشتهاء العرب" وهو "**القابليه الاستعمار**" عند "مالك بن نبي" وهو "**الاستحمار** "عند "علي شريعتي" في كتابه "النباهة والاستحمار"، باعتبار أنّ الاستعمار في نظر "شريعتي" مصدره خارجي في حين نجد أن الاستحمار مصدره داخلي، وهو أن يسخر الإنسان كما يسخر الحمار لخدمة رؤية معينة، ولا يتم هذا الوضع إلا بفقدان ما سماه بـ"الوعي النفسي".

وعليه يمكن القول بأن نوع الحياة التي يمنحها **الكائن الروحي** للأمة في وضعه هذا أقل ما يقال عنها أنها حياة تفتقر إلى الحياة، ووجود يفتقر إلى الوجود، <<وجود تبعية>> وتصبح من البديهي صورة وجود الأمة التي هي اللغة في مستوى الضعف والهوان الذي تعانيه الأمة ذاتها، وفي هذا السياق يصبح الخوض في قضية اللغة بعدّها من أهم القضايا جدل عقيم ويصبح الاستقلال اللغوي القضية التي تطفو على السطح لها جذور في الاستشراق الغربي وامتدادات في الفكر الحديث، ولا يمكن الخوض في هذه القضية إلا بمعرفة جذورها وكشف امتداداتها.

2/ اللغة والدين:

والأكيد أن المقوّم الأساس للكائن الروحي الذي يجسد مفهوم الأمة هو الدين، فالذين << يتعلقون اللغات الأجنبية ينزعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلق، إن لم تكن عصبيتهم للغتهم قوية مستحكمة من قبل الدين أو القومية، فتراهم إذا وهنت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميتهم ويتبرؤون من سلفهم وينسلخون من تاريخهم وتقوم بأنفسهم الكراهة للغتهم وآداب لغتهم، ولقومهم وأشياء قومهم >> (مصطفى صادق الرافعي، ت ط: 2000، ص: 27) وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن للقضية جذور دينية في الأصل.

ومن الطبيعي والحال أن الدراسات الاستشراقية هي المرجع الذي يحكم طبيعة العلاقة بين الذات والآخر، اعتبار قضية الاستقلال اللغوي حلقة من حلقات نقد الاستشراق، وما اللغة إلا وسيلة من وسائل تشويه الإسلام، وذلك لطبيعة العلاقة الوثيقة بين الإسلام واللغة العربية. فهذه الأخيرة قد << تعرضت لأشرس الهجمات التي تواصلت عليها منذ أن

صارت لسان حضارة القرآن، وليس من بين لغات العالم لغة أصابها من الافتراء بشتى الأشكال ما نزل بنسق العربية وبديوانها الثقافي، والمستهدف في الواقع هو ما حملت من كلام رباني وسنة محمدية >> (محمد الأوراغي، 2010، ص: 68).

ولقد وردت الآيات الدالة على هذا الترابط في عدة مواضع من القرآن الكريم، أحصاها "الأوراغي" في كتابه "**لسان حضارة القرآن**" ونذكر منها في هذا السياق قوله تعالى مخاطبا خاتم النبيين [[لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين]] سورة الشعراء: الآية: 195.

كما وردت أحاديث دالة على العلاقة نفسها في السنة النبوية، يقول الأوراغي في سياق حديثه عن التحام العربية بالشريعة: << نصت السنة المطهرة على متانة هذه العلاقة تبعا لابن عطية أحد كبار المفسرين، إذ جاء في المقدمة: روى ابن عباس أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال أي علم القرآن أفضل؟ فقال: النبي ﷺ "عربيته فالتمسوها في الشعر"، وفي أمره ﷺ بإعراب القرآن قال "أعربوا القرآن والتمسوا إعرابه عن الله فإن الله يحب أن يعرب" ثم أضاف ابن عطية معلقا على الحديثين "إعراب القرآن أصل في الشريعة لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع" >> (**محمد الأوراغي، 2010، ص: 86).**

هذه الشواهد إن دلّت على شيء فإنها تدل على الترابط بين العربية والإسلام من جهة، وهذا أمر بديهي، وإدراك مكانة اللغة في تشكيل الصراع الفكري الثقافي، باعتبار أن العديد من المستشرقين أدركوا طبيعة العلاقة المتينة بين اللغة والإسلام كون هذا الأخير شكّل وما زال محور الفكر الغربي عن الذات.

وعليه فإن الحديث عن اللغة معناه الحديث عن الإسلام، وفي هذا السياق يقول المستشرق الفرنسي "لويس ماسينيون" << إذا كانت المهمة الدينية للغة العبرية قد انتهت مع القانون والرسل ومهمة الآرامية مع تبشير المسيح، فإن المهمة الدينية للغة العربية لم تنته بعد عند الأمم >> (عبد القادر الفاسي الفهري، 2013، ص: 9).

وفي هذا السياق يعد الحديث عن العربية حديثا هاما، وتتأتى أهميته من كونه يعكس علاقة بين الذات والآخر ساهمت في إعادة تشكيل الخارطة الذهنية للعالم، ومن المعلوم أن العلاقة بين الذات والآخر كما سبق وأن أشرنا يحكمها مبدأ الخوف من الإسلام، وبذلك فإن اللغة العربية في هذا السياق << تتواجد في مرمى الصراع الحضاري الهادف إلى استئصال المنطلق القاعدي للحضارة الإسلامية، ولا سبيل لهذا الاستئصال سوى تعميق الهوة المعرفية بين الإسلام والمسلمين حتى الانسلاخ التام >> (محمد الأوراغي، 2010، ص: 87)، ولقد تمّ التوسل بالعديد من المخططات والمشاريع غير المباشرة في سبيل تحقيق هذه

الهيمنة، ومن ضمن هذه الأساليب نذكر: << تنصيب طوائف محلية مزودة ببرامج سرمدية ذات أهداف مرحلية تبتدئ بإحداث شرخ في الكتلة العربية الإسلامية وتنتهي بإخلاء المنطقة من الدين الإسلامي واللغة العربية لفائدة لغة الآخر، وهي طوائف تستقوي على الوطنيين بدعم واسع من مستعمر الأمس وحليف اليوم >> (محمد الأوراغي، 2010، ص: 88).

ولقد شكل البحث في ماهية وطبيعة هذه المشاريع مضمون الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي الذي يبحث في طرق استمرارية الهيمنة في مرحله ما بعد الاستعمار، ولقد أدرك العديد من المثقفين والنقاد بوعي حاد طبيعة الصراع والمخططات القائمة في هذه المرحلة ودور اللغة في ذلك كله، ويؤكد أحد الدارسين في هذا السياق قائلا: << إن منع لغة الملة عن المسلمين في أوطانهم لمن أقوى الوسائل والأسباب لكتمان التنزيل ولإحكام هذا المنع اللغوي هناك طريقتان: أولا بإحلال الحرف اللاتيني محل الحرف القرآني، وثانيا إدخال لغات الشعوب الإسلامية ولغة القرآن في علاقة قوة وصراع استئصالي >> (محمد الأوراغي، 2010، ص: 120).

ولقد تعددت الدراسات التي استأثرت بطرح ودراسة ومناقشة الوعي بالمضامين الفكرية لقضايا ما بعد الاستعمار وكذا مكانة الدين في تلك الخطابات، ما يؤكد في نهاية المطاف أن هذا الوعي شكّل ويشكّل منعطفا حادا في مسيرة الفكر المركزي والعالمثالثي على حد سواء، وهو كفيل بتجاوز الصراعات الفكرية الداخلية بين مؤيد ومعارض، وفي هذا السياق يقول الرافعي: << إذا قويت العصبية الدينية وعزّت اللغة وثارت لها الحمية، فلن تكون اللغات الأجنبية إلا خادمة يرتفق بها، ويرجع شبر الأجنبي شبرا لا مترا، وتكون تلك العصبية للغة القومية مادة وعونا لكل ما هو قومي، فيصبح كل شيء أجنبي قد خضع لقوة قاهرة غالبة هي قوة الإيمان بالمجد الوطني والاستقلال الوطني، ومتى تعيّن الأول أنّه الأول فكل قوى الوجود لا تجعل الذي بعده إلا أنه الثاني >> (مصطفى صادق الرافعي، ت ط: 2000، ص: 28).

ثالثا: اللغة في السياق المعولم:

إن طرح مناقشة الجذور الفكرية المتعلقة بقضية اللغة يقودنا إلى التسليم بأن الوعي الحقيقي في ظل العولمة التي نعيشها هو الذي يجعلنا نتجاوز الصراعات القائمة، ونجعل من اللغة وسيلة من وسائل بناء وتنمية الوعي بحقيقة وجود الذات والآخر على حد سواء ومكانة كل منهما في الخارطة الفكرية العالمية، وأن الهدف المنوط بالدراسات الفكرية هو

إيجاد طرق وسياسات للتعامل مع الوضع القائم (العولمة) لتحقيق نوع من التكامل المعرفي الذي يتجاوز أفكار من مثل الصراع والتنافس... باعتبار أن << السياسات الحالية هي في الغالب وليدة مخاوف مفادها أن التعددية اللغوية تشكل تهديدا للهوية الوطنية، أو أنها أحسن من أن تنتشر في المدارس محدودة الموارد، وتستند تلك المخاوف إلى ما يطلق عليه **"المعتقد التنافسي"** وهو معتقد فاسد ينظر إلى اللغات بوصفها ظاهرة مسيجة بحدود الفضاءات الجغرافية والإدراكية، أي أن إضافة لغات مزيدة إلى فضاء مستوعِب - سواء أكان ذلك الفضاء هو فضاء العقل أم الدولة - يخلق جوا تنافسيا ويشكّل تهديدا >> (دادلي رينولدز، 2019، ص: xi)

وتشخيص بسيط للسياق المعولم لخصه عنوان بحث رائع قدمه (وسيتكوت،2004) **"الغرق أم السباحة"** (دادلي رينولدز، 2019، ص: 49) من منطلق أن المحافظة على النسق العام لا تكون بانغلاقه كما قال **أدغار موران**، باعتبار أن الانغلاق هو الانقراض، والمحافظة الحقيقية على حياة النسق تكون بانفتاحه، والسياق المعولم يشكّل تحديا صعبا يجعل من الانفتاح أمرا محفوفا، فلابد له من سبل وسياسات مدروسة يحكمها مبدأ التعاون لا التنافس، وعليه فإن سياسة تدريس اللغات في هذا السياق (الذي يبحث في دور اللغة) ينبغي أن تقوم على مبادئ التعاون الآتية: (دادلي رينولدز، 2019، ص: xi)

أولا: استيعاب الاحتياجات المتغيرة من الموارد اللغوية لدى الأفراد والمجتمعات
ثانيا: انتهاج نظرة شاملة للتعدد اللغو
ثالثا: إذكاء الاحترام للاختلاف

ويبرز في هذا السياق دور التعليم الذي ساهم بشكل كبير في إعادة رسم معالم الحركة الفكرية، واعتبر موطنا من مواطن الحداثة، حيث استعمل في السياق المعولم في بناء الوعي من جهة وفهم روح العولمة من جهة ثانية، وأصبح بذلك << التعليم الذي يتسم بالتعددية اللغوية والذي يقوم على مبادئ التعاون كفيل بتحقيق تحول نوعي في المحصلات التعليمية لدى أعداد ضخمة من الطلاب بشتى أنحاء العالم، ولديه القدرة على الإسهام في تحقيق الهدف الرابع من أهداف الأمم المتحدة للتنمية المستدامة بشأن التعليم النوعي >> (دادلي رينولدز، 2019، ص: xi).

وعليه فإن طرح ومناقشة فكرة التعليم الذي يقوم على التعددية اللغوية كموطن من مواطن الحداثة في سياق العولمة كفيل بتحقيق **معرفة المعرفة** التي تجعل من الخوض في فكرة الاستقلال اللغوي بمعناه السطحي مجرد أُلهية، باعتبار أن اللغة في هذا السياق ما هي إلا مجموعة من الموارد، هي وسائل لا غايات.

خاتمة:

استأثرت هذه الورقة البحثية بطرح ومناقشة قضية الاستقلال اللغوي من خلال ربطها بالسياقات الفكرية والثقافية التي ظهرت فيها، لما لها من أثر عميق في إعادة فهم قضية الاستقلال اللغوي فهما يتجاوز المفاهيم اللغوية السائدة، وتطرقنا في سبيل توضيح ذلك إلى دراسة مكانة اللغة في ظل الخطابات الفكرية بداية من الفكر الاستشراقي الغربي مرورا بخطاب ما بعد الاستعمار الذي يمثل حلقة هامة من حلقات نقد الاستشراق وصولا إلى سياسة تدريس اللغات في السياق المعولم، لنخلص في الأخير أن قضية الاستقلال اللغوي بمفهومه السائد هو جدل عقيم وأن الاستقلال اللغوي الحقيقي هو استقلال الوعي.

قائمة المراجع:

1/ إدوارد سعيد: الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط:1، 2006.

2/ دادلي رينولدز: سياسة تدريس اللغات في السياقات المعولمة، مؤسسة قطر، 2019

3/ روبرت يونغ: أساطير بيضاء كتابة التاريخ والغرب، تر: أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، منشورات المشروع القومي للترجمة، العدد: 616، ط: 2، 2003.

4/ زكية عرعار: الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي عند مصطفى الأشرف، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط: 1، 2021.

5/ عبد القادر الفاسي الفهري: السياسة اللغوية في البلاد العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط: 1، 2013.

6/ محمد الأوراغي: لسان حضارة القرآن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط:1، 2010

7/ مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، الجزء: 3، دار الكتب العلمية: بيروت، ط: 1، 2000.

8/ نغوجي واثيونغو: تصفية استعمار العقل، تر: سعدي يوسف،دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، د ط، 2011.